مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
ISSN *2352-9849 EISSN 2602-6929
العدد 17جوان 2017

النخبة الجزائرية وموقفها من الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر (1830)

د/أحمد عصماني
جامعةالبليدة 2

ملخص

لقد حقق الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830 لنفسه مزايا مزدوجة منها :الحصول على موقع استراتيجي في البحر الأبيض المتوسط ووضع قارة تحت السيطرة أضحى تقسيمها إحدى البوادر الطاغية في العلاقات الدولية في غضون القرن التاسع عشر.

وعليه فقد نزلت الحملة العسكرية الفرنسية يوم 14 جوان 1830 بميناء سيدي فرج ببضعة كيلومترات غرب العاصمة ،وفي 4 جويلية كانت القوات الفرنسية قد استحوذت على الأعالي المتاخمة للعاصمة الجزائرية بعد قصف للمدينة، وبذلك تمكنت من تطويق قصر الداي يوم 5 جويلية وتفرض على حاكم الجزائر إمضاء اتفاقية مع السيد دي بورمون باسم الجنرال قائد الحملة العسكرية الفرنسية،وكانت البداية مع احتلال الجزائر العاصمة كهدف وحيد للغزو الفرنسي، ولم يتمكن الاستعمار الفرنسي من احتلال مجموع التراب الوطني، إلاّ بعد أن خاضت القوات الفرنسية حربا ضروسا ومميتة ضد الشعب الجزائري دامت سبع عشر سنة، لكن من وراء هذه المقاومة الجزائرية المسلحة لهذا المحتل ، كيف كان موقف النخبة الجزائرية إزاء هذا الغزو الفرنسي وسقوط مدينة الجزائر؟

Résumé

La conquête de l'Algérie en 1830 présentait pour la France un double avantage : acquérir une position stratégique en Méditerranée et prendre pied sur un continent dont le partage allait devenir l'un des traits dominants des relations internationales au XIXe siècle .

Le corps expéditionnaire français fut déparqué le 14 juin à Sidi Ferruch, à quelques kilomètres Ouest d'Alger, Le 4 juillet ; les troupes françaises s'emparèrent des hauteurs dominant la capitale, et ,après le bombardement de la ville ,le souverain « le Dey » demanda à capituler : Le lendemain ,une convention de Bourmont du nom du général commandant le corps expéditionnaire français ,fut signée, La capitulation visait expressément la seule ville d'Alger : la France devait mener une guerre couteuse et meurtrière de dix-sept ans pour occuper l'ensemble du territoire algérien. Mais, au-delà de toute cette résistance militaire des Algériens contre cet occupant, Quelle était la position de l'élite algérienne à l'égard de cette conquête française et la capitulation d'Alger ?

نزل الجيش الفرنسي غرب الجزائر العاصمة يوم 14 جوان 1830 وبعد قتال مرير وخسائر فادحة بين الطرفين واستسلمت DuBourmont الحكومة الجزائرية في 5 جويلية من نفس العام، ثم أمضى كل من الداي رئيس الدولة الجزائرية والكونت دي بورمون

قائد الحملة العسكرية الفرنسية معاهدة تعرف باتفاق الجزائر، ومما نصت عليه هذه المعاهدة حرية العمل بالدين الإسلامي ضمان حرية جميع الطبقات والأديان والممتلكات والتجارة والصناعات واحترام كامل للمرأة وعدم الأذن للجنود الفرنسيين بدخول المساجد... آخره ، علاوة على ذلك فإن الفرنسيين قد قدموا أنفسهم إلى الجزائريين على أنهم محررون لا منتصرون [1] ، ورغم التعهد الفرنسي لسكان الجزائر باحترام شعائرهم الدينية وممتلكاتهم إلا أنها نكثت هذه العهود واستولت على خزينة الدولة ونهبت الأموال العامة والخاصة وحوّلت المساجد إلى كنائس، إضافة إلى الاعتداءات على المواطنين والأعراض وتدنيس المقابر التي استعملت عظامها في إنتاج الفحم وغير ذلك [2] ، ومما يؤكد على أن الاحتلال الفرنسي جاء مستبدا لا محررا، ما يذكره المؤرخ الفرنسي نفسه عن تصرفات جيشه في الجزائر ، المؤرخ بوديكور، الذي كان يكتب في السنوات الأولى من الامراطورية بقوله :"إن جندنا كانوا خجولين من أنفسهم عند عودتهم من الحملة (ضد منطقة القبائل) فقد قطعوا 18000شجرة وحرقوا المنازل وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ، وقد أثارت النساء المنكوبات بالخصوص رغبتهم في الثروة بعادة لبس الأقراط والخلاخل والأساور الفضية وهذه الحلي ليست لها عرى كالحلي الفرنسية ، فقد وضعت في شحمة أذان الفتيات منذ الصغر ولا يمكن إزالتها عندما يكبر ن ولكي يحصل جنودنا على هذه الحلي عمدوا إلى قطع شحمة الآذان وتركها حية على تلك الحالة البشعة "[3].

كما يصف المؤرخ الانجليزي "نفيل بربور" واقع الحكم الفرنسي على الجزائر بالعبارات التالية: "إن بعض أحسن مساجدهم (أي الجزائريين) قد حوّل إلى كنائس وأيام المواسم الإسلامية قد أبطلت شرعيتها وأراضي القبائل قد صودرت وكل رمز وطني قد حطم "[4].

وأمام هذا الواقع المزري الذي فرضه الاحتلال الفرنسي بدءا من الجزائر العاصمة ، فإن ردود الفعل الجزائرية على هذا الغزو والاحتلال الذي أعقبها قد اتخذت أشكالا عديدة، وقد كان من الطبيعي أن تظهر أقل ردود الفعل في المدن وخاصة بمدينة الجزائر التي عرف سكانها- وفي مقدمتهم النخبة- أول اتصال بالعدو والاحتكاك به والوقوف على إجراءاته التعسفية؛ حيث تضررت مباشرة باستهتاره بكل القيم والأعراف الإنسانية وتعرضت لظلمه وجوره وسميت هذه المقاومة (ردود الأفعال) بمقاومة النخبة أو أهل الحضر.

فمن هي هذه النخبة؟ وما موقفها من الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر؟

تشكل النخبة -أو ما درج المؤرخون الجزائريون على تسميتها بلجنة الحضر- طبقة غنية منحدرة من أهل البلاد ومن مهاجري الأندلس ، كانوا سياسيا يحتلون المرتبة الثالثة بعد الأتراك والكراغلة، وكانوا يملكون الأراضي في سهل متيجة وبعض الأملاك في مدينة الجزائر نفسها ويمتهنون التجارة ، وكانوا غالبا راضين بوضعهم ولا يطمحون إلى مناصب سياسية ، ولكن منهم من تقلد مناصب القضاء والإفتاء والكتابة ونحوها من المهام الثانوية ، كان بعضهم محل ثقة الداي حسين أمثال حمدان خوجة [5]

عندما بدأ الفرنسيون في شرح الوضع الاجتماعي للجزائر صنفت النخبة أو طبقة الحضر على أنها منافسة وساخطة على الأتراك ، وهكذا وجهوا أنظارهم نحو هذه الطبقة التي كانت بدورها مستعدة للاستعانة بهم، لكن بشروط ، وبمجرد استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر أبعدوا الأتراك عن الحكم وقاموا بترحيل كل الجنود الأتراك المقيمين في الجزائر إلى تركيا وتشكيل لجنة حكومية فرنسية

تتكفل بإدارة الجزائر[6]،وأسندوا بعض المناصب لهؤلاء الحضر فتولى بعضهم مركز "آغا العرب" مثل حمدان خوجة وأصبح بعضهم بايا على التيطري مثل مصطفى بن عمر، وأصبح بعضهم رئيسا لأول مجلس بلدي لمدينة الجزائر مثل أحمد بوضربة[7].

لكن هذه الطبقة سرعان ما اكتشفت أنها كانت مخطئة في اعتقادها بأن فرنسا ستعوض حكم الأتراك بحكم محلي تكون هي لجنة الحضر على رأسه، وفي خضم هذا الوضع الجديد والتعامل مع هذه الوقائع لجأت طبقة النخبة إلى عدة طرق للتعبير عن عدم رضاها ، فأعضاؤها لم يكونوا مرابطين فيأمروا أتباعهم بالجهاد ضد فرنسا كما فعل محي الدين والد الأمير عبد القادر ، ولم يكونوا شيوخ القبائل فيدعوا أنصارهم إلى حمل السلاح كما فعل ابن زعموم، ولم يكونوا من بقايا الدولة المنهارة، فيحملوا الناس على محاربة العدو كما فعل كل من باي التيطريبومزراق وباي قسنطينة أحمد باي، لقد كانوا مجرد طبقة تحترف التجارة في السابق، ولكنها الآن مجردة من المال ،كانوا يحسنون رسم الخطط، ولكنهم يفتقدون الوسائل، وقد زاد وضعهم سوءا أن كثيرا منهم هاجر أو انتقل إلى أماكن أخرى في الجزائر نفسها والذين لم يهاجروا ولم يغادروا فرّقهم المحتلون وأضعفوهم بالنفي والمحاكمات الجائرة وتسليط الطائفة اليهودية عليهم[8].

لقد كان لعنصر الزمن وللتجربة المرة التي اجتازتها النخبة الجزائرية دورا في إيقاظ ذوي الضمائر الحية من الجزائريين الذين أخطأوا في تقدير الموقف تقديرا سليما في البداية، وحاولوا تدارك ذلك الموقف بالعمل في حدود إمكانياتهم المحدودة لدعم جهود المقاومة الثقافية بالوسائل السياسية.

لم تكن طبقة النخبة أو لجنة الحضر على درجة واحدة من التفاهم والطموح والمصالح ، بل لم يكونوا ينظرون إلى فرنسا بعين واحدة ، فقد كان فيهم من يتمتع ببعد النظر رغم ضعف الإمكانيات، وفيهم الضعيف الخائر الذي يكفي لاستمالته وعد كاذب ، وكان على هؤلاء أن يدخلوا في البحث عن محل وجودهم في الواقع و يدرسوا نوايا الاحتلال الفرنسي ويتحسسوا عامة الناس واهتماماتها ، وقد ظهر في بعض الأحيان أن اللعبة السياسية كانت أعقد مما ملكت إيمانهم ونالته أيديهم وأعند من قوة ذكائهم ، ومن البديهي أن ينتج عن الوضعية الجديدة اتجاهات سياسية سماها الدكتور أبو القاسم سعد الله أحزابا ويمكن حصرها في ثلاثة [9] وهي:

الاتجاه العثماني : وهو الاتجاه الذي كان أنصاره يسعون إلى البقاء على ولائهم للخلافة العثمانية وتحرير الجزائر من نير الفرنسيين وعودة الحكم العثماني إلى الجزائر، وكان في طليعته حمدان خوجة وابن العنابي.

الاتجاه الوطني : وهو الاتجاه الذي كان يضم عناصر تنظر داخليا للصالح العام والتحرير الوطني واستعمال كل السبل لجمع الشمل وعلى رأسه أحمد بوضربة.

الاتجاه الفرنسي: هو الاتجاه الذي ارتبطت مصالحه بالمصالح الفرنسية ووجد نفسه مستفيدا من الوضع الجديد، وكان على رأسه مصطفى بن الحاج عمر.

وتجدر الإشارة إلى أن الزعامات المذكورة سابقا لم تكن كلها ذات مواقف محددة وثابتة من البداية إلى النهاية ،إذا كثيرا ما وقع التحول في الميول إلى هذا الطرف أو نقيضه، أضف إلى ذلك أن هذه التيارات قد حدثت بين زعمائها مشاحنات وعصبية أدت إلى إتاحة الفرصة للعدو لا بعادها عن ساحة المقاومة السياسية .

تيارات النخبة والمقاومة السياسية:

1-1التيار العثماني ونشاط حمدان خوجة

من أبرز ممثلي التيار العثماني نجد حمدان بن عثمان خوجة الذي ولد سنة 1773 بالجزائر العاصمة على عهد الداي عثمان باشا، ونشأ تحت رعاية أبيه وتوجيهه المستقيم، فتعلم القرآن الكريم وتفقه في الدين وفي عام 1784 سافر إلى القسطنطينية رفقة عمه، وكان ذلك أول احتكاك له بالعالم الخارجي، درس القانون على أبيه عثمان، كما كان شغوفا بالتجارة والأسفار التي جعلت منه رجلا متنورا عالما بكل ما يجري حوله ،حيث زار أهم مدن الشرق الأدنى والبلقان، ثم ذهب إلى أوروبا الغربية عام 1820 وزار فرنسا وتعلم اللغة الفرنسية[10] .

لعب حمدان خوجة دورا هاما في مدينة الجزائر أثناء وقوع عملية الاحتلال خاصة ما يتعلق بالعودة إلى اجتماع الحضر الذين طالبوا على إثره من الداي الاستسلام، وقد كان محل ثقة الداي، ولذلك أرسله إلى صهره إبراهيم آغا الذي عقد مجلسا لتحديد خطة معينة للدفاع عن البلاد ، كان حمدان خوجة من بين أعضائه، ولكن هذا المجلس لم يتمكن من وضع خطة إستراتيجية دقيقة، وقد تمخض عن هذا الاجتماع بروز آراء متباينة، كان يرى إبراهيم آغا وجوب بناء حصون على شاطئ البحر وتزويدها بالمدافع ، أما حمدان خوجة فتبين له سداد هذا الرأي، لكن لا يمكن تطبيقه، ومن الأفضل أن يبادر الجزائريون بالمقاومة ومهاجمة الفرنسيين وعرقلة نزولهم، كما أكد حمدان خوجة أكد لإبراهيم آغا أنه إذا سخرت كل الطاقات الجزائرية في إقامة الحصون، فإن نيران المراكب الفرنسية ستقضي عليها، وأن تسليح الحصون سيؤدي إلى تعرية مدينة الجزائر التي ينبغي الدفاع عنها وحمايتها[11].

وعقب فشل الجزائريين في مقاومة الاحتلال وانهزامهم ، دخل الفرنسيون مدينة الجزائر بعد توقيع معاهدة الاستسلام في 5جويلية 1830، ونتيجة لما باشره الفرنسيون من إجراءات تعسفية ومعاملات سيئة حيال الجزائريين وأملاكهم ، ظهر نشاط سياسي في شكل مبادرة نحو إبلاغ الرأي العام الفرنسي أولا بالفضائح التي ترتكب باسمه في الجزائر من جهة ، وإقناعه بعدم فائدة بقاء فرنسا في هذه البلاد من جهة ثانية، وذلك عن طريق تجهيز العرائض والشكاوي والاحتجاجات ضد ممارسات إدارة الاحتلال التي تستهدف الممتلكات الخاصة وأملاك الوقف على المساجد والزوايا والمدارس وتدنيس أضرحة الأولياء، والاستحواذ على أملاك الحرمين الشريفين مكة والمدينة، وانتهاك حرمة المساجد والمقابر، وتدنيس قبور الموتى واتخاذ عظامهم سلعة للتصدير، وتعطيل سريان أحكام الشريعة الإسلامية في بعض الأحيان وغيرها من الانتهاكات[12].

تذكر بعض المصادر الفرنسية أن حمدان خوجة كان يرغب في إيقاف القتال مع الفرنسيين حقنا لدماء المسلمين الجزائريين الذين لا طاقة لهم على متابعة المقاومة، ولما توقف القتال أوفد ابنه الأكبر حسن بمرافقة أحمد بوضربة إلى " الحي العام" للتفاوض مع الجنرال دي بورمون، وكان ذلك بعد ظهر اليوم الرابع من شهر جويلية 1830 ، وكان سي حمدان يهوّن على الجزائريين الذي أرادوا أن يغادروا البلاد ويهاجروا خوفا على دينهم ، فكان يجد في نصحهم مخاطبا إياهم: "لا فرق بين أن يحكمنا زيد أو عمر، وإنما نطالب من يحكمنا أن يحكمنا بالعدالة الاجتماعية والمساواة التامة ، إن الأسس التي بنيت عليها القوانين الفرنسية تقتضي عدم مس ديننا وعقائدنا؛ لأن الدين أمر عقلي ، والأمور العقلية لا محاربة فيها، إن الفرنسيين هم بشر مثلنا وقد جمعت بيننا وبينهم الأخوة الإنسانية، بالإضافة إلى ذلك فإن الحضارة والتمدن مستمدان من قوانين الإنسان،إذن فكيف نخاف من أمة لها باع طويل في الحضارة الإنسانية وقدم راسخ في التمدن البشري؟"[13].

ولعلّ عبارات هذه الفقرات توهم وتزرع بذور الشك في نفوس بعض القراء فتجعلهم يتهمون حمدان خوجة في وطنيته وإخلاصه لبناء جنسه ، والملاحظ على مواقفه طابع الغموض خلال السنوات الأولى من الاحتلال، وربما يعود الأمر إلى غموض السياسة الفرنسية واختلاف وجهات نظر مسئوليها، علاوة على ذلك فإن هذا الخطاب تناقلته المصادر الفرنسية التي تريد تضليل الرأي العام الجزائري، ولذلك تضاربت الأقوال حول هذه الشخصية. ورغم ذلك فحمدان خوجة ظل نشاطه متواصلا ولم يركن إلى الراحة

أو يلتزم الصمت من أجل القضية الجزائرية ، ففي كتابه " المرآة "- الذي ألّفه في أكتوبر 1833 -وجّة لوما شديد اللهجة إلى الفرنسيين على خرق بنود اتفاقية الاستسلام ،ويقترح على الإدارة الاستعمارية أن تعترف بالجنسية الجزائرية من خلال تكوين حكومة جزائرية حرة ومستقلة ومدينة الجزائر للجزائريين[14].

1-2 التيار العثماني وابن العنابي

وهناك ابن العنابي الذي يحسب على التيار العثماني وهو مُحَمَّد بن محمود بن مُحَمَّد بن الحسين الجزائري المشهور بابن العنابي الذي عاش عمرا حافلا بالإنتاج العلمي والاضطراب السياسي ، فقد ولد عام 1775 حسبما أكده بنفسه في إجازته للشيخ مُحَمَّد بيرم التونسي عام 1845 وتوفي بإجماع الباحثين في الإسكندرية (بمصر) عام 1851.

و تعدّ هذه الفترة الطويلة التي تتوزع على القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (18و19) أحرج الفترات التاريخية لا بالنسبة للجزائر فحسب ، ولكن بالنسبة للدولة العثمانية والعالم الإسلامي قاطبة ، لقد عاصر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث مست جوانب متعددة من الحضارة الإسلامية، كما عايش حروبا خارجية في بلاده الجزائر ضد الانكليز والأمريكان والفرنسيين والأسبان وصراعات بين الطائفة التركية نفسها، سواء على مستوى السلطة المركزية في مدينة الجزائر أو على مستوى الأقاليم[15] .

تولى ابن العنابي الفتوى على مذهب الإمام أبي حنيفة (مذهب العثمانيين) وقام برحلات وبعثات دبلوماسية إلى المغرب واسطنبول وحجّ وزار عدة بلدان، وتولى التدريس بالأزهر، وألف الكتب والرسائل ومنح الإجازات ولقي علماء المشرق وتعرّف على حكامه، ومنهم السلطان محمود الثاني ومُحَمَّد علي والي مصر وباي تونس وسلطان المغرب ، ويكفي أن كتابه " السعي المحمود في نظام الجنود" كان عبارة عن دعوة للنهوض الإسلامي وضرورة تقليد الغرب في العلوم والتكنولوجيا وفي الأسلحة الجديدة ، رغم أنه ألف هذا الكتاب قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1826م [16]

ويبدو أن ابن العنابي غادر الجزائر قبل الاحتلال بسنوات من أجل تأدية فريضة الحج، وعندما حلّت الكارثة بالجزائر نادى الباشا حسين على محل ثقته ابن العنابي، وطلب منه أن ينادي في الناس بالجهاد ويجمع كلمة الجيش المتفرقة، فما كان على بن العنابي إلا تلبية النداء، لكن بعد فوات الأوان ، فمكث بداره يرسم الخطط إلى أن جاءه قرار النفي من قبل الحاكم العام الجديد الجنرال كلوزيل الذي خلف الجنرال دي بورمون في شهر أوت من نفس العام والذي تفطن لخططه، فنفاه إلى الإسكندرية فورا في سبتمبر1830م[17].

المفتي ابن العنابي على تسليمه بعض المساجد في المدينة لجعلها مستشفيات Clauzelوتعود جذور هذا التوتر حينما أجبر كلوزيل

للجيش متعهدا له باستعمالها مدة شهرين فقط ، وكان ابن العنابي شديد النقد للسلطات الفرنسية على خرقها للاتفاق الموقع بين الداي حسين والكونت دوبورمون؛ حيث كان يكتب بنقده ولومه إلى الجنرال كلزويل [18]، وضاق هذا الأخير ذرعا بجرأة المفتي، فقرر وضع حد له، ليلقي عليه رجال الدرك القبض ويقاد إلى السجن، و بعد ذلك تعرضت أسرته إلى الاهانة والتجريح، وكانت التهمة التي وجهت إليه هي تدبير مؤامرة ضد الوجود الفرنسي وإعادة الحكم الإسلامي (العثماني) للجزائر[19].

1-3ردود الفعل الاستعمارية على مواقف النخبة منه

عندما دخل الجنرال دي بورمون الجزائر وجد نفسه مضطرا إلى تقليد وجهاء البلاد الذين كانوا يحسنون اللغة الفرنسية بعض الوظائف السياسية ليكونوا همزة وصل بينه وبين الشعب الجزائري، والعمل على إسكات هذه النخبة بواسطة منحها بعض الامتيازات، فكان حمدان خوجة في مقدمة هؤلاء القوم المزدوجي اللغة، فأسند إليه رئاسة المجلس البلدي لمدينة الجزائر المحتلة ، كما

التمس منه دوبورمون أن يكفيه شر اليهود الذين أخذوا يطالبونه بالأموال التي قدموها للكراغلة أيام الاحتلال، فانتهج معهم حمدان خوجة طرق دبلوماسية إلى أن استصعبوا السير فيها، فأحجموا وأقلعوا عن المطالبة بأموالهم، وبذلك كان سي حمدان همزة وصل بين السلطات الفرنسية والأهالي[20].

أمّا علاقته بالجنرال كلوزيل فتتمثل في كونه أسند إليه مهام سياسية؛ منها تعيينه من قبله عضوا في إحدى اللجان التي تقوم بتقويم الدور والمنازل التي اقتضت مصلحة الحكومة الاستعمارية تهديمها ، كما عيّنه أيضا مبعوثا للتوسط بينه وبين مصطفى بومزراق (باي التيطري)، إلاّ أن علاقته به توترت وابتعد كل واحد عن الآخر، والسبب يرجع لعدم ثقة كلوزيل بحمدان سيما وأنه قد عارضه وحث الجزائريين على الاحتجاج ضد الإدارة الاستعمارية عندما سجن المفتي ابن العنابي بسبب عدم موافقة رأي كلوزيل في تحويل المساجد إلى مراكز عامة لصالح الحكومة[21].

والواقع أن حمدان خوجة كان لا يبغض كلوزيل، وإنما كان يفضح أعماله اللّانسانية تجاه إخوانه الجزائريين، ومما ورد في كتابه " المرآة" مايلي:" أنا لا أتحامل على كلوزيل ولا أبغض شخصيته، وإنما قلت فيه ما قلت بعدما شاهدت بأم عيني أعماله السيئة، وبعدما قرأت كتاباته المضلّلة للرأي العام الفرنسي، ومع ذلك فإنني قد صنت كتابي عن ذكر الكثير من أعماله اللانسائية، ولم تسعف يميني قلمي أن يكتب أشياء حقيقية يندى لها الجبين، فأرجوا من السيد كلوزيل أن يوبخ ضميره بدل توجيه اللّوم لقلمي"[22].

أما علاقته بالدوق دو رفيقو Duc De Rovig الذي التحق بالجزائر في شهر ديسمبر خلفا للحنرالبيرتزين Berthezene والذي تغيرت في عهده السياسة الفرنسية رأسا على عقب، فإنه كان يهاجمه وينعته بالظلم والطغيان والعجرفة والاستبداد، ورغم هذا فإن روفيقو كان يثق في سي حمدان ثقة تامة تجسدت في تكليفه بمهمة الصلح بينه وبين الحاج محي الدين بالقليعة، والحاج أحمد باي بقسنطينة، وقد سافر سي حمدان إلى قسنطينة مرتين أولهما في وسط شهر أوت 1832 والثانية في أواخر شهر أكتوبر من نفس السنة [23]

حاول حمدان خوجة أن يبلغ من خلال هاتين السفريتين أحمد باي بمطالب الحاكم العام الفرنسي والقاضية باستسلامه وتعاونه مع الاحتلال الفرنسي ودفع ثلاثة ملايين فرنك غرامة على الحروب السابقة وضريبة سنوية مقابل إبقائه حاكما على بايلكه دون جدوى[24]

لقد أظهر حمدان خوجة نشاطا كبيرا ضد استمرار الاحتلال الفرنسي في الجزائر من خلال آرائه التي نقلها في المرآة ، الأمر الذي عرضه إلى المحاكمة من قبل السلطات الفرنسية، ذلك أن العناصر اليمينية في كل من الجزائر وباريس قد أثارت حملة ضده وحتى توسلاته للحكومة الفرنسية بالتدخل لم تجد نفعا، وبعد أن حوكم مرة ثانية تم نفيه إلى اسطنبول محطم القلب، كبير السن، خائب الأمل وزادت تعاسته عندما طردت السلطات الفرنسية ابنه حسن من الجزائر بتهمة التآمر ضد الوجود الفرنسي[25].

أمّا فيما يتعلق بابن العنابي، فإن بعض المصادر الفرنسية تذكر أن المخبرين قد نقلوا إلى أذن كلوزيل بأن المفتي الحنفي لمدينة الجزائر رجل خطير على الوجود الفرنسي، وأن له تأثيرا قويا على أهل البلاد ، أما حمدان خوجة ، فيفصل الحادثة حسب ما رواها له المفتي فيما يلي:" جاء الترجمان إلى منزل ابن العنابي وطرح عليه بعض الأسئلة تتعلق بمكانته في البلاد وخططه المستقبلية من ذلك أن الترجمان أخبره بأن كلوزيل ينوي الجلاء عن الجزائر وتسليم الحكم له، وسأله ما إذا كانت لديه القدرة على إعداد جيش والدفاع عن البلاد ، فأجابه المفتي بأن ذلك في استطاعته إذا اقتضى الأمر، ثم سأل الترجمان هل جيشه سيكون من داخل البلاد أو من مدينة الجزائر وحدها، فأجاب المفتي بأنه سيجيش جيشا يبلغ ثلاثين ألف رجل من كل أهل البلاد، وكان الترجمان قد أخفى حسب هذه الرواية شخصين ضلا ينصتان لهذه المحادثة ليكونا شاهدين ضد المفتي[26].

فأمر كلوزيل بنفيه فورا ولم يمهله، رغم أنه كان صاحب أسرة وأطفال وأملاك وديون وغيرها، مما يتطلب الأمر منحه مهلة معقولة لتصفية هذه الأمور قبل مغادرة البلاد ، وهذا الجانب الإنساني هو الذي جعل حمدان خوجة يتدخل لدى الحاكم العام الفرنسي لصالح ابن العنابي رغم توجسه خيفة منه[27] ، فقد ترجاه أن يمهله حتى يبيع أملاكه ويصفي ديونه ويرّجل أسرته، ولم يحصل حمدان منه على مهلة عشرين يوما إلا بصعوبة كبيرة، وبعد انقضاء هذا الأجل رحل ابن العنابي إلى الإسكندرية ، بعد أن لفق له كلوزيل تهمة تتمثل في كونه كان على اتصال بزعماء القبائل الريفية ليؤلف منهم جيشا يطرد به الفرنسيين[28].

وكان اتخاذ مثل هذا الإجراء سببا في صمت السلطات التشريعية في البلاد؛ كالقضاة والمفتين، فهم لم يعودوا إلى الاحتجاج على خرق شروط التسليم خوفا من أن يكون مصيرهم مثل مصير المفتي ابن العنابي، وقد استمرت سياسة الفرنسيين في إبعاد العناصر الخطرة ذات النفوذ أو التي يمكن أن تلعب دورا اجتماعيا وسياسيا بين المواطنين حتى يخلو الجو للسلطات الجديدة[29].

2-الاتجاه الوطني وسياسة التموقع

كان يمثل الاتجاه الوطني أحمد بوضربة الذي ينتمي إلى نفس الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها حمدان خوجة، ويوصف بوضربة بأن كان رجلا ذكيا وماكرا واشتغل قبل الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر بالتجارة الخارجية، وكان يملك محلات في مرسيليا؛ حيث أقام بها مدة طويلة تعلم فيها اللغة الفرنسية، ولم يغادر هذه البلدة إلاّ عندما أعلن عن إفلاسه التام[30].

لذلك يعتبر من أبرز عناصر طبقة النخبة (التيار الوطني) في الفترة الممتدة ما بين 1830إلى 1837، فهو الذي فاوض الداي ودي بورمون وفرض وجهة نظر الحضر على الأول، ونال وعودا من الثاني لصالح الحضر، وقد كفأه دو بورمون، فجعله على رأس اللجنة البلدية التي أنشأها لإدارة شؤون العاصمة، وكان دو بورمون يأخذ برأيه في تعيين الأهالي ولا سيما النخبة في المناصب الجديدة ، فهو الذي اقترح إسناد منصب" آغا العرب" إلى الحضري حمدان بن أمين السكة (عم حمدان خوجة) ، وهو الذي أوصى أحد أقاربه مصطفى بوضربة وكيلا لأوقاف مكة والمدينة، كما أوصى بتعيين الحاج مصطفى بن عمر بايا على التيطري، وكان يقترح سياسة فرنسا نحو باي قسنطينة وباي وهران، وقد استمر على مكانته وتأثيره عند خلفاء دي بورمون، فقد ولاه كلوزيل إدارة أملاك مكة والمدينة ووضع فيه بيرتزين ثقته[31].

يصفه الفرنسيون بعدة أوصاف متناقضة أحيانا ، فهم من ناحية يثقون فيه، ولكنهم يتهمونه من ناحية أخرى بأنه كان يرأس " لجنة المغاربة " التي كانت تعمل لصالح استعادة الحكم الإسلامي في الجزائر والتي كانت على اتصال مباشر من الباشا المخلوع[32].

استغل بوضربة هذا الوضع، فوجه نشاطه ضد عناصر التيار العثماني وبقايا الأتراك، فكان يتهمه بالتآمر ويشيع عنه العداء له وللفرنسيين وينصح هؤلاء بطردهم من الجزائر ، ومن ذلك اكتسب عداوة اليهود والعناصر العثمانية، وكثرت حوله الشكاوي، فعزله كلوزيل وشك في نواياه، وبقي كذلك على عهد بيرتزين، إذ كان يقوم بنشاط مكثف لصالح الحضر ومصالح العاصمة والعرب عموما، كما وجدت عدة عرائض موقعة من أعيان العاصمة تختاره للتفاوض لصالحهم مع الفرنسيين سنة 1831 وقد نفاه رفيقو سنة 1832 فعاش في مرسيليا، ولكنه لم يتوقف عن الدفاع عن قضية بلاده [33]، وتكررت أنشطته أمام اللجنة الإفريقية (1833-1834) عندما حلّ بباريس وسلم لهذه اللجنة مذكرة يقترح فيها حلولا للتفاهم بين المنتصرين والمهزومين وعلى أن يسلك الفرنسيون سلوكا عادلا ومعتدلا ومتسما بالصبر، وما اقترحه في هذه المذكرة نجد الإجراءات التالية:

-إنشاء مجلس استعماري كبير، ويكون فيه عضو مسلم له صوت استشاري .

-تأسيس بلدية يكون فيها خمسة مسلمين (إلى جانب ثلاثة فرنسيين ويهوديين(2) يتم اختيارهم من بين 60 من الأعيان.

-تنظيم محكمة ملكية في مدينة الجزائر يكون فيها مسلم من 15 عضوا وطالب أن يضاف إلى القاضيين الفرنسيين المنصبين في مدينة الجزائر قاضيين مسلمين يتم اختارهما من بين عدول القاضي.

-كما قدم مقترحا حول تنظيم الإدارة وكيفية تسييرها داخل البلاد وأمور أخرى

لم تأخذ السلطات الفرنسية بعين الاعتبار مقترحات هذه النخبة، ولم يبق للجزائر المستقلة إلاّ طريق واحد ويتمثل في المقاومة الشعبية ضد الاحتلال، فوجد بوضربه نفسه مساندا لمقاومة الأمير عبد القادر (1834-1835)، ولكنه عضو بلدية الجزائر من جديد سنة 1836 م [34]

لقد لعب بوضربة دورا حساسا جعل الجزائريين ينقسمون حوله ، فهو عند البعض من الموالين للفرنسيين وعند البعض الآخر من ضحايا الفرنسيين، كما جعل الفرنسيين ينقسمون حوله ، فهناك من يعتبره صديقا لهم ومنهم من يعتبره عدوا لدودا حتى أن الجنرال بيليسي الذي أصبح حاكما عاما للجزائر في عهد نابليون الثالث عام 1860[35] وصفه بأنه " رجل ذكي ومحتال بعيد كل البعد عن مكارم الأخلاق"[36].

والحقيقة أن هذه الشخصية لم تستطع أن تحقق أهدافها الشخصية والوطنية من الاحتلال الفرنسي وخابت آمالها في الفرنسيين ، عموما فقد ساندت الأمير عبد القادر وأقامت علاقات تجارية مع المغرب، ولم تستطع التحرر من التبعية الفرنسية،فضلا عن عجزها عن إيجاد تنسيق مع الوجوه الأخرى للمعارضة أمثال حمدان خوجة وإبراهيم ابن مصطفى باشا .

كانت العرائض التي صدرت من أعيان الجزائر بين 1830-1831 مفعمة بالثقة في بوضربة، كما لجأ هذا الأخير إلى كتابة العرائض إلى المسؤولين الفرنسيين يطلب منهم رفع الظلم عن الجزائريين؛ من ذلك العريضة التي أرسلوها إلى الجنرال بيرتزين يطلبونه فيها عام 1831 باحترام الاتفاق المبرم بين الداي حسين ودي بورمون ورد الأوقاف إلى المسلمين، ويحتجون على بقاء المنازل محتلة من قبل الجنود والضباط دون دفع الكراء، كما احتجوا على بيع إقليمي وهران وقسنطينة إلى باي تونس، وقد استمرت عملية التفويض هذه وكتابة العرائض والاحتجاجات ضد سوء المعاملة إلى سنة 1836 ، والجدير بالذكر أن حمدان خوجة وهو في فرنسا كان يتلقى أيضا العرائض والرسائل من أولئك الأعيان من أجل نفس الغرض[37].

ويبدو أن برنامج وجهاء النخبة أو أعيان الحضر المنتمين لهذا الاتجاه لم يخرج عن المطالب التي نص عليها في الحقيقة اتفاق الجزائر

1-احترام الدين الإسلامي ومؤسساته وأوقافه وإنشاء لجنة من المسلمين لإدارة شؤونه.

2-إعادة الأملاك الخاصة التي استولى عليها الجيش الأجنبي ودفع الكراء وتعويض أصحابها.

3-تسيير شؤون المدينة من قبل الحضر.

4-تخفيض نشاط اليهود في الجزائر وطرد الأتراك الباقين منها .

5-فتح مجالات العمل والتعلم والصحافة أمام الجزائريين (فتح المدارس العربية وإنشاء جريدة...[38])

ويظهر من هذا البرنامج أنه غير متطور ولا طموح فيه، فهو يقبل بالوجود الفرنسي كحقيقة واقعة، ولكن يريد أن تستفيد منه فئة دون غيرها .

لقد بادر أحمد بوضربة شأنه شأن حمدان خوجة عند تكوين اللجنة الإفريقية (7جويلية 1833) ،فكتب إليها مذكرة كما فعل حمدان خوجة، ولكن شتان بين المبادرتين شعورا وهدفا ، فبينما كان خوجة ثائرا على الأوضاع غير مؤمن بالتعاون المفروض بين الفرنسيين والجزائريين، كان بوضربة ناقدا للأوضاع ومتصديا لها باقتراحه لحلول عملية لفائدة التعاون الفرنسي الجزائري، والمذكرة مقسمة إلى سبعة فصول تضم عناوين مثل؛ التنظيم البلدي، تطبيق القضاء والعدل، التنظيمات الخاصة بالمناطق الداخلية، إدارة المؤسسات الخيرية وغيرها[39] .

3-الاتجاه الفرنسي

إذا كانت عناصر الاتجاهين السابقين تعود أصولها إلى ما قبل الاحتلال، فإن عناصر التيار الفرنسي لم تظهر إلاّ مع الاحتلال، وكانت تضم مختلف الأفراد والعائلات التي ارتبطت مصالحها بالوجود الفرنسي، وهي بذلك تشمل بعض رجال الدين والعلماء والأعيان والساسة والموظفين الإداريين، وكان هذا الاتجاه قد ضم أيضا أفراد من ذوي الاتجاه العثماني ، ولم يتبلور موقف هذا التيار بسرعة كما تبلور موقفا التيارين السابقين.

بيد أن الأمر لا يدعو إلى الجزم من أن جميع هؤلاء كانوا من التيار الفرنسي بما تحمله العبارة من معنى ، ذلك أن كثير منهم لعبوا أدوارا مختلفة، فبدأوا أنصارا ثم تحولوا عنه، ومنهم من كان عدوا له ثم وجد نفسه من أنصاره[40].

ويعدّ من أبرز هذا الاتجاه مصطفى بن لحاج عمر الذي عينه كلوزيلبايا على إقليم التيطري خلفا للباي مصطفى بومزراق الذي خلعه الفرنسيون لثورته ضدهم[41]، ويبدو أنه كان قليل الخبرة بشؤون التسيير، وأنه لم يسع إلى هذا المنصب وإنما فرض عليه فرضا وقبله مكرها، وكان عليه أن يواجه ثورة الباي، ثم ثورة ابنه سي أحمد (ابن مزراق)، فضلا عن مواجهة شكوك وثورة أهالي الإقليم من جهة، وضغط الفرنسيين الذين ينتظرون منه إخضاع الإقليم إلى سلطتهم من جهة أخرى[42].

لم يكن ابن عمر على دراية كبيرة بشؤون الحكم والإدارة –كما ذكرنا سابقا– كما أن كلوزيل أمره عند تعيينه أن لا يغيّر شيئا من الإدارة السابقة، فاقتصرت أعماله على تسيير أمر القضاء وحلّ المخالفات ونحوها... ومع ذلك فقد تعلّق به أهل المدينة ورغبوا في بقائه عليهم حين أراد أن يعود إلى مدينة الجزائر في حماية الجيش الفرنسي، كان ابن عمر يعلم جيدا أنه لا قدرة له على مواجهة الموقف بعد انسحاب الجيش الفرنسي من المدية، ولكن المواطنين خافوا من أن تعم الفوضى المدينة فأصروا على بقائه بينهم[43].

واجه مصطفى بن عمر ثورة سي أحمد بن بومزراق الذي أعلن الثورة ضده واحتل دار الباي الريفية ، بل كان يدخل المدينة دون أن يجرؤ الباي على اعتقاله، وعندما تفاقم أمره طلب ابن عمر النجدة من خليفة كلوزيل الحاكم العام برتزين (20 فبراير 1831) الذي حضر بنفسه لنجدته، ولكن هذا الأخير فشل في مطاردة العرب، فقرر انسحاب الفرنسيين من المدية، وأخذ معه الباي وقفل راجعا نحو العاصمة[44].

رفض التعاون معه، وقد ظل (BOYER) أراد بيرتزين بعد ذلك تعيين ابن عمر بايا على وهران، ولكن القائد الفرنسي الجنرال بوابي

كذلك إلى عهد الدوق رفيقو الذي اضطهد طبقة الحضر، فذهب ابن عمر إلى باريس خوفا من توجيه الاتهام إليه بأنه يعمل لصالح عودة الحكم الإسلامي، وقد انضم إلى زملائه المنفيين، فكونوا حولهم حلقة من المعارضين والفضوليين، وفي باريس منح وسام الشرف وأصبح الناس يخاطبونه بالسيد الباي، غير أنه من الواضح أن هذا الوسام لم يكن علامة على اعتراف فرنسا بخدماته فقط، ولكنه كانت محاولة لدفعه على ملازمة الصمت ؛ غير أن هناك عددا آخر من أمثاله كانت توجه إليهم اتهامات في الجزائر وتمنح لهم أوسمة في باريس وكان ابن عمر إذ ذاك يبلغ من العمر سبع وأربعين سنة، وكان يتقن اللغة الفرنسية ويلبس لباس أهل الحضر ويساعد المساكين ويعطف على الفقراء[45] .

إنّ الشيء الذي يمكن أن نخلص إليه هو أن المقاومة السياسية التي تبنتها جماعة النخبة أو ما يسمى بلجنة الحضر وخاصة من خلال نشاط حمدان خوجة قد أثبتت درجة الوعي السياسي عند هذه النخبة الجزائرية والتي حاولت الوقوف بين عهدين عثماني وفرنسي في وجه الاحتلال الفرنسي ، غير أن الأمر المؤكد هو أن تصفية نشاط هذه الحركة المتنورة من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية لم يثن من عزيمة الجزائريين الذين لم تنطفئ عندهم جذوة المقاومة في جميع المجالات وبمختلف الوسائل، الأمر الذي تأكد في مسيرة التاريخ الوطني من جراء اندلاع المقاومة الشعبية الجزائرية .

الهوامش

1-أبو القاسم سعد الله؛ الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930) الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزء الثاني، الجزائر 1983. ص16

2- رابح لونيسي وآخرون: تاريخ الجزائر المعاصر ،دار المعرفة ، الجزء الأول،الجزائر ، 2010ص 64.

3- سعد الله، المرجع السابق،ص67

4-نفسه

5- أبو القاسم سعد الله؛ محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث وبداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ، 1982ص65.

6- لونيسي وآخرون، المرجع السابق، ص64.

7-سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص66.

8- عبد النور خيثر ؛منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954) ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954 الجزائر ،2007،ص187

9- أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزء الأول، القسم الأول، الجزائر، 1992 صص109-110

10- حمدان بن عثمان خوجة ؛ المرآة، تحقيق مُحَمَّد بن عبد الكريم ،دار مكتبة الحياة ، بيروت ،لبنان 1972 ص90.

11- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962،دار الغرب الإسلامي، لبنان،1997 ، ص95
12- جمال قنان دراسات في المقاومة والاستعمار، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1998 ص13
13- خوجة ، المرآة ،تحقيق مُحَمَّد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص154.
14- محفوظ قداش؛ جزائر الجزائريين، تاريخ الجزائر (1830-1954) ، ترجمة مُحَمَّد المعراجي، الجزائر 2008.
15- أبو القاسم سعد الله، رائد تاج الدين الإسلامي،مُحَمَّد بن العنابي، دار الغرب الإسلامي ،طبعة ثانية، لبنان 2000،صص21-22.
16- خيثر وآخرون، المرجع السابق ص198.
17- سعد الله؛ الحركة الوطنية،الجزء الأول، القسم الأول ، صص114-115.
18- حمدان خوجة ، المرآة ، تقديم وترجمة وتحقيق العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر 1982 ص250.
19- خيثر وآخرون ، المرجع السابق، ص198.
20- خوجة ، المرآة ،تحقيق مُحَمَّد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص160.
21- نفس المرجع، صص163-164
22-نفسه
23-نفسه ص169
24-يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، المتحف الوطني للمجاهد ، الجزء الأول، الجزائر، 1996 صص 66-67.
25- سعد الله ؛ تاريخ لحركة الوطنية، الجزء الثاني، المرجع السابق،صص32-33.
26-حمدان خوجة، المرجع السابق ص260.
27- نفس المرجع ص 261.
28- سعد الله ابن العنابي صص41
29- سعد الله محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق ص75
30-حمدان خوجة، المرآة ، تحقيق مُحَمَّد بن عبد الكريم ، المرجع السابق،ص141
31-سعد الله محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق ص76
32- نفسه ص 77
33- سعد الله الحركة الوطنية، الجزء الأول، القسم الأول، المرجع السابق ص111
34- قداش، المرجع السابق، ص38
35-سعد الله؛ الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، المرجع السابق ص22
36-Ti Pellissier De Raynaud, Les annales algériennes, Nouvelle édition, Paris, 1854, p77
37-سعد الله؛ الحركة الوطنية ،ج1، القسم الأول، المرجع السابق، صص 111-112.
38- نفس المرجع ،صص 112-113.
39- حمدان خوجة، المراة ، تحقيق مُحَمَّد بن عبد الكريم، المرجع السابق، صص-202
40- سعد الله، الحركة الوطنية الجزء الثاني، المرجع السابق، صص117-118

41- حمدان خوجة، المرجع السابق، تحقيق مُحَمَّد بن عبد الكريم، ص244

42- سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق صص69

43- نفسه

44-خيثر وآخرون، المرجع السابق، ص204.

45- سعد الله : محاضرات، المرجع السابق، صص 70-71.